الوقف على المدارس ودوره في ترقية البحث العلمي

أ.علي زواري أحمد
أستاذ مساعد متعاقد، قسم الحضارة الإسلامية، معهد العلوم الإسلامية – جامعة الوادي.
soufislam@gmail.com

ملخص البحث

يتحدث هذا البحث عن الوقف في منظومتنا الإسلامية، وذلك بإلقاء الضوء على جزئية منه تتعلق بالمدارس الوقفية في تاريخنا الإسلامي، وقد تعرضنا لأربع مدارس مهمة وكبيرة، وهي: المدرسة النظامية ببغداد التي أنشأها الوزير نظام الملك، والمدرسة المستنصرية التي أنشأها الخليفة العباسي المستنصر بالله، والمدرسة الصالحية بمصر التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب، والمدرسة النورية الكبرى بدمشق التي أسسها القائد نور الدين بن زنكي، كما عرجنا على التمويل الوقفي للمدارس، الذي تمحور في الوقف على العلماء الأساتذة، والوقف على طلاب المدارس، قصد الاهتمام بما يساعد أساتذتها وطلبتها على العلم، كتقدير الأجور والمنح، وتوفير المساكن وغيرها.، ما جعل الطلبة يقبلون على العلم من شتى البلاد، وجعل الباحثين يفرغون أوقاتهم ويسخّرون جهودهم في البحث العلمي، كما أن تلك الأوقاف وفّرت التعليم لكل طبقات المجتمع، الأغنياء والفقراء، والكبار والصغار؛ بل حتى الكهول، حيث أصبح التعليم بالمجان، وبإمكان كل طالب أن يلتحق بهذه المدارس وينخرط فيها ويرتقي في السلم الاجتماعي للارتقاء بالمجتمع في الجانب العلمي والثقافي، ولم يتوقف الأمر عند هذا بل رُصدت جملة من الأموال الوقفية في تدعيم الأساسيات التي يعتمد عليها العلم؛ والتي منها إيقاف المكتبات والكتب، ما أتاح لطلبة العلم البحث والوصول للمعلومة، ومكن الباحثين من التأليف والإبداع في شتى العلوم المختلفة، ووفر عليهم الجهد والوقت والمال في آن واحد، وهذا شجع على العلم والبحث العلمي مما أدى لترقيتهما.

مقدمة

يعتبر تاريخنا الإسلامي من أهم المحطات في تاريخ البشرية في جوانب إنسانية عدّة، ومن هذه الجوانب التي سبقت فيها الحضارة الإسلامية المجتمع الإنساني عَبر تاريخه؛ هو الجانب الوقفي،

فقد احتسب أصحابه أموالهم وبعض ممتلكاتهم في سبيل الله، رغبة منهم في بلوغ الثواب الدائم المستمر، فقدموها طيبة بها نفوسهم، قانعة بها ضمائرهم، عالية بها هممهم، فتخيروا بها الأغراض النبيلة التي رغبهم فيها كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

فقد كانت المسارعة في أعمال البرِّ والخير سمة أصيلة تعبر عن الجانب الإنساني الواعي، وركيزة من ركائز المجتمع المسلم المؤمن بأن التعاون والتكافل في وجوه الخير والصلاح والنماء يعود بالنفع والبركة على البلاد والعباد، فكان الوقف من أفضل وأرقى الوسائل في نشر الخير، ومن أعظم سُبِل الإنفاق في سبيل الله، الشيء الذي رسم مظهرا من مظاهر ازدهار الأمة، وشكل نقطة تحول في حضارتها الضاربة في التاريخ، وما ذاك إلا للثمار الوقفية العديدة التي حظيت بها الأمة الإسلامية، ففتحت لها آفاقا رحبة، وعبدت لها سُبلا واسعة، ولم يقتصر الأمر على بناء المساجد على أهميتها كمراكز تعليمية لبث الروح الإسلامية في نفوس المسلمين، وإنّما هناك وقف المستشفيات والمراكز الصحية، والمدارس والجامعات، والكتب والمكتبات، والأراضي والمزارع والبساتين، وغيرها الكثير الكثير، نظرا للحاجة إلى تنويع العمل الخيري؛ وحاجة المجتمع إليه، ممّا دفع إلى الابتكار فيه، حتى شمل جميع الجوانب الحياتية للمجتمع، وغطى الحاجات المادية والمعنوية والأدبية لمختلف شرائحه.

من كل هذا يمكننا أن نقرر بأن الوقف يعتبر من أهم الأدوات في تحقيق الربط والترابط العلمي والثقافي والتاريخي بين السلف والخلف، وذلك عن طريق العلوم والأوقاف التي وقفوها، إذ لا زلنا نستفيد منها ونجني من نعيمها إلى الآن، وهذا ما يجعلنا نثمن قيمة الوقف، ونسعى جاهدين لتفعيله من جديد، وخاصة في المجال العلمي، كل هذا دفعنا ليكون عنوان بحثنا " الوقف على المدارس ودوره في ترقية البحث العلمي".

إشكاليَّة البحث:

وعلى هذا فإن إشكالية البحث تتمثّل في معرفة الدور الفعّال الذي أداه الوقف في الجانب العلمي حتى نشأت المدارس الوقفية المختلفة التي أسهمت وبجدية في ترقية البحث العلمي، ويمكن أن نطرح أسئلة جزئية تسهم في فك هذه الإشكالية؛ والتي منها:

ما مفهوم الوقف في موروثنا الفقهي؟.

وكيف كانت نشأة المدارس المستقلة والنظامية في تاريخنا الإسلامي؟.

وما هي السبل التي اعتمدها الوقف وساهم بها في تمويل المدارس الوقفية؟.

وما هي أشهر المدارس الوقفية في حضارتنا الإسلامية؟ وما هو دورها في الترقية العلمية؟.

الهدف من الموضوع:

والهدف من هذا الموضوع هو معرفة الدور الذي أداه الوقف في الحياة العلمية، وبيان الجهود التي قام بها أسلافنا في هذا الجانب، قصد تفعيل الوقف العلمي في حياتنا اليوم، وإظهاره من جديد للمجتمع، وتوضيح ثماره ونتائجه، والبحث عن أهم الآليات المساعدة على ذلك، قصد تحقيق الأهداف المرجوة منه في خدمة العلم وأهله بكل الوسائل والآليات الممكنة والمتاحة، وإسهاما في رقي مجتمعنا وأمتنا، وتهيئة الأمور لأجيالنا القادمة، وقبل ذلك وبعده ابتغاء المثوبة عند الله تعالى.

ومن هذا فإننا حاولنا تقسيم البحث إلى مجموعة من المطالب، نرى أنها تسهم في إثراء الموضوع، والإلمام بجوانبه، وفي ذات الوقت تنسجم مع الأهداف المرسومة له، وتفك إشكاليته المطروحة، وهذه طريقة تقسيمه:

بداية بالمقدمة التي فيها إبراز الموضوع، مع بيان أهدافه وطرح إشكاليته، ثم تقسيمه لمطالب، هي:

المطلب الأول: مفهوم الوقف في موروثنا الفقهي.

المطلب الثاني: نشأة المدرسة في تاريخنا الإسلامي.

المطلب الثالث: التمويل الوقفي للمدارس.

المطلب الرابع: أشهر المدارس الوقفية ودورها العلمي.

وبعد كل هذا فأول ما نبدأ به، هو:

المطلب الأول: مفهوم الوقف في موروثنا الفقهي

أ – الوقف لغة:

الوقف مفرد وجمعه أوقاف[1]، ووقوف[2]. وهو من أصل مادة (و ق ف)، يقول ابن فارس: «الواو والقاف والفاء: أصل واحد يدل على تمكث في شيء ثم يقاس عليه»[3].

---

1 – أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ) بمساعدة فريق عمل: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429 هـ – 2008 م، 3/ 2485.

2 – محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي: معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 1408 هـ – 1988م، ص: 508.

3 – أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ): مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: 1399هـ – 1979م.، 6/ 135.

وقد اتفق اللغّويون وعلماء الشريعة بأن الوقف مصدر[1]، وهذا المصدر يراد به اسم المفعول، بمعنى الشيء الموقوف[2].

والوقف عندهم يدور حول معاني، هي: التحبيس[3]، والتسبيل، وكلها بمعنى واحد. ففي لسان العرب لابن منظور: «وفي الحديث: ذلك حَبيسٌ في سبيل الله؛ أي موقوف على الغزاة يركبونه في الجهاد، والحبيس فعيل بمعنى مفعول. وكل ما حبس بوجه من الوجوه حبيس. الليث: الحبيس الفرس يجعل حبيسا في سبيل الله يغزى عليه»[4].

ب – الوقف اصطلاحا:

عندما نقف مع أقوال الفقهاء حول تعريف الوقف نجدها اختلفت، وهذا راجع لاختلافهم في شروط وأركان الوقف، وإليك تعريفاتهم:

– فعند الحنفية: «حَبْسُ الْعَيْنِ عَلَى حُكْمِ مِلْكِ الْوَاقِفِ وَالتَّصَدُّقُ بِالْمَنْفَعَةِ»[5].

– وعند المالكية: «جَعْلُ مَنْفَعَةِ مَمْلُوكٍ وَلَوْ بِأُجْرَةٍ أَوْ غَلَّتِهِ لِمُسْتَحِقٍّ بِصِيغَةٍ مُدَّةَ مَا يَرَاهُ الْمُحَبِّسُ»[6].

– أما الشافعية: «حَبْسُ مَالٍ يُمْكِنُ الِانْتِفَاعُ بِهِ مَعَ بَقَاءِ عَيْنِهِ بِقَطْعِ التَّصَرُّفِ فِي رَقَبَتِهِ عَلَى مَصْرِفٍ مُبَاحٍ مَوْجُودٍ»[7].

---

1 – ينظر – أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ): مجمل اللغة، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية – 1406 هـ – 1986 م، ص: 934.

2 – قاسم بن عبد الله بن أمير علي القونوي الرومي الحنفي (المتوفى: 978هـ): أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، المحقق: يحيى حسن مراد، دار الكتب العلمية، الطبعة: 2004م–1424هـ، ص: 70. والقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (المتوفى: ق 12هـ) : دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية – لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ – 2000م، 3/ 317.

3 – محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ): تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م، 9/ 251.

4 – محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ): لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1414 هـ، 6/ 45. مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: 817هـ): القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، 1426هـ – 2005م، ص: 537.

5 – ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (المتوفى: 1252هـ): الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار)، دار الفكر – بيروت، الطبعة: الثانية، 1412هـ – 1992م، 4/ 337.

6 – أبو العباس أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي المالكي (المتوفى: 1241هـ): بلغة السالك لأقرب المسالك المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير، دار المعارف، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ، 4/ 97.

7 – شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي (المتوفى: 1004هـ): نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار الفكر، بيروت، الطبعة: ط أخيرة – 1404هـ/1984م، 5/ 358.

– وعند الحنابلة: «تَحْبِيسُ الْأَصْلِ، وَتَسْبِيلُ الثَّمَرَةِ»[1].

ففي الأول حبس عين، والثاني حبس منفعة، والثالث حبس مال، والرابع حبس أصل، وهذا الاختلاف في تعريف الوقف تكمن ثمرته في استثماره في توسيع دائرة الوقف وحاجة الناس لذلك في كل زمان، وتماشيا مع مستلزمات العصور بروح الشريعة الغراء الصالحة لكل زمان ومكان، وهذا ينفعنا في مجال الوقف العلمي في هذا العصر الذي تعددت فيه وسائل المعرفة، وتكاثرت فيه أدواتها، وتعددت فيه مجالاتها، وخاصة مع فرض التخصصات نفسها، فلم يعد الأمر متوقفا على علوم اللغة والقرآن والشريعة، ولا على الوسائل التقليدية القديمة، فنحن في عصر التطور والتقدم التكنولوجي، وهذا يحتم علينا النظر لعصرنا برؤية أشد وضوحا وأشمل مما كانت عليه في السابق.

المطلب الثاني: نشأة المدرسة في تاريخنا الإسلامي

كان منتصف القرن الخامس الهجري هو بداية تأسيس المدارس المستقلة، وأوّل مدرسة في الإسلام هي المدرسة النظامية التي شيّدها الوزير نظام الملك[2] في بغداد سنة 459ه، وقد اعتبرت أول مدرسة أو جامعة في الإسلام نظرا لدقة نظمها وتطورها، ولأنّها" أول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم"[3]، وأصبح بذلك نظام الملك مثالا يقتدي به السلاطين والأمراء والموسرون، وعملوا على تقليده في تبني حركة إنشاء المدارس[4].

وكانت للمدرسة خصائص تميزها عن مراكز التعليم الأولى من مساجد ودور العلم والحكمة،

---

1 – أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: 620هـ): المغني، مكتبة القاهرة، بدون طبعة، تاريخ النشر: 1388هـ – 1968م، 6/ 3.

2 – هناك اختلاف حول أول مدرسة مستقلة أسست في الإسلام، فمنهم من اختار المدرسة النظامية كأول مدرسة، ومنهم من ذهب إلى أنّ نيسابور عرفت إنشاء المدارس قبل النظامية، فأبو حاتم محمد بن حبان البستي(ت354هـ/965م) قد اتخذ من داره مدرسة لأصحابه، وأفرد منها مكانا لسكنى الطلبة الغرباء من أهل الحديث والمتفقهة، وأنشأ بها خزانة كتب ورتب للطلبة جرايات، ثمّ وجدت المدرسة البيهقية والمدرسة السعيدية بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوي لما كان واليّا على نيسابور، ومدرسة بناها أبو سعيد الاستراباذي، ومدرسة رابعة بنيسابور بنيت للأستاذ أبي إسحاق: انظر: أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافية الإسلامية، دت، دط، ج362– 363، عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، دار المعارف مصر، د2، دت، ص48، د. كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995م، ص23–26.

3 – راجع: المقريزي، الخطط، المصدر نفسه، ج363، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى : 911هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، الطبعة : الأولى 1387 هـ – 1967 م ج2، ص255، د. عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين، ص49.

4 – د.كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص5–6، . عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين، ص49.

ومساكن العلماء وقصور الخلفاء، وحوانيت الوراقين، وذلك من حيث استقلال البناء وتخطيطه، وإيقاف الوقوف عليها، وإلحاق الأقسام الداخلية بها وإدارتها، وتقدير المعاليم للمدرسين والطلبة والعاملين فيها[1].

ومن أهم ميزات المدرسة أنّها وفرت للطالب بها الاستقرار في مكان واحد لمدة طويلة بعيدا عن مشقة التنقل، كما خلصته من مشكلة وفاة الأستاذ قبل إكمال الدراسة إذ أصبحت المدرسة هي المسؤولة عن استقدام المدرس[2].

كما تميزت المدرسة المستقلة عن بقية مراكز التعليم بما فيها بعض المؤسسات التعليمية التي أخذت مسمي المدرسة بوجود مساكن للطلبة والمدرّسين، يقول ناجي معروف: "ويظهر أنّ بعض المدارس لم يكن فيها بيوت إلا أنّنا نعتقد أنّ المدرسة لم تطلق إلاّ على المكان الذي فيه بيوت للطلبة ومعاليم أي مرتبات وجرايات دارة لهم ولمن يقوم بالتدريس فيها"[3]، أمّا أحمد فكري فيقول :" اتخذت المدرسة وظيفتها الرئيسة من كونها أعدت لسكنى الفقهاء"[4].

فمن خلال النصوص التاريخية التي أتت على ذكر المدارس نستنتج أنّ المدرسة المستقلة لها شروط خاصة، وأنّ تعريفها مستمد من البيوت المخصصة فيها لسكنى الشيوخ والفقهاء والطلبة، ولهذا السبب نجد أنّ البناء قد راعى تلك المسألة عند قيامه بتخطيط المدارس، فراعى مسألة وجود بيوت للعاملين والدارسين والمدرّسين في المدرسة، بالإضافة إلى قاعات الدراسة والمكتبة وجميع المرافق الأخرى الضرورية لقيام المدرسة بمهامها في التدريس وإيواء الطلاب والأساتذة.

أمّا عن أسباب ظهور المدارس، فقد تباينت آراء المؤرخين والباحثين[5] في ذلك، فمنهم من ذهب إلى أنّ فتور همم النّاس في طلب العلم استدعى توجيه الاهتمام به عن طريق بناء المدارس وتوفير الرواتب للطلبة والأساتذة[6]، ويذهب أحمد شلبي إلى أنّ الأصوات المنبعثة من الحلقات العلمية في المساجد قد أعاق الصلاة فيها، واتضح صعوبة احتمال المساجد للصلاة والتدريس معا، ويضيف

1 – راجع: المقريزي، الخطط، ج2، ص362–363، السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص255، د. عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين، ص48، كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص5–9.

2 – د. كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص6.

3 – المرجع نفسه، ص25–26.

4 – د.أحمد فكري، مساجد القاهرة مدارسها، دار المعارف – القاهرة، دط، دت، ج2، ص145، ص149.

5 – راجع تفصيل ذلك في: د. عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين، ص49–50، د.كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص28–30.

6 – د.كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص28–29.

إلى ذلك: "أنّ العلوم تطورت بتطور الزمن .. وأصبحت هناك مواد تستدعي دراستها كثيرا من الحوار والنقاش والجدل كعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة، ومثل هذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال"[1].

ولابد من الإشارة إلى أنّ التعليم في المساجد بدأ منذ تأسيسها في المدينة المنورة بعد الهجرة ولم يتوقف إلى عصرنا الحالي، ولا يمكن للتعليم فيها أن يعيق الصلاة، لأنّ حلقات التدريس تتوقف أثناء الصلاة لينتظم الجميع في الصفوف لأدائها، وعلم الكلام والجدال فيه ظهر في حلقات المساجد منذ القرن الأول الهجري، فلم لم يكن عائقا للصلاة إلاّ في القرن الخامس الهجري حيث انتبه لذلك فأنشأت المدارس بسببه[2].

المطلب الثالث: التمويل الوقفي للمدارس

يشمل الوقف على المدارس بناء المدارس وتجهيزها، ووقف الأوقاف المختلفة الدائرة على الإنفاق على رواتب علمائها وطلابها والإداريين، وعلى سكن الطلاب والأساتذة، وعلى طعام الطلبة ودوائهم وجراياتهم، كما يشمل الوقف على تجهيز المكتبات الضخمة لتيسير العملية التعليمية، وتسهيل حصول الأستاذ والطالب على الكتب والمراجع التي يحتاجها للدراسة والبحث العلمي، في زمن كان الكتاب ينسخ باليد، ويصل ثمنه إلى ما يقارب عقارا من العقارات، وقد ساهم أفراد المجتمع كلّه في الوقف على التعليم وتشييد المدارس الوقفية.

ودراسة متأنية لوثائق وحجج الأوقاف في شتى البلدان الإسلامية، ولخطط المقريزي، أو للسيوطي في حسن المحاضرة، أو لكتاب الدارس في تاريخ المدارس للنعيم، أو للكتب الفقهية على اختلاف مذاهبها، أو كتب التراجم قديمها وحديثها أو كتب التاريخ والرحلات وغيرها، كلّ ذلك يعطينا مادة غزيرة عن الأوقاف التي وقفها الخلفاء أو السلاطين وزوجاتهم وبناتهم، أو الأمراء والوزراء، ورجال الدولة سواء من مالهم الخاص أو إرصادا من بيت مال المسلمين، أو تلك الأوقاف التي وقفها العلماء والوجهاء والتجار؛ بل عامة الناس وخاصتهم تثبت مدى اهتمام المسلمين على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم، رجالا ونساء بالعلم والتعليم، وأنّه من أجل القربات عند الله، ومن أحسن ما يخلد به المرء اسمه في سجل العظماء في التاريخ، فلا عجب أن يقال بعد ذلك أنّ الحضارة الإسلامية بمختلف إنجازاتها المبهرة هي ثمرة يانعة من ثمرات الأوقاف

1 – أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ص85, د.كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص29.

2 – د.كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص29.

الإسلامية[1].

1 – الوقف على العلماء الأساتذة:

لقد ساعد الوقف في تقدم العلوم من خلال تكفله بصرف استحقاقات للمعلمين في المدارس الموقوفة مما جعل هؤلاء المعلمين يحصلون على عيش كريم بالاعتماد على ما تدره الأموال الموقوفة عليهم، حيث استطاعوا أن يستقلوا ويتفرغوا لمهمتهم التعليمية وأن يهتموا بالتأليف والإنتاج العلمي.

فبعض الأوقاف شملت الإنفاق على المدارس بما تتطلبه من مصروفات للعاملين من معلمين وخدم وتجهيزات وصيانة وغيرها، كما أنّ بعض الأوقاف خصصت للصرف على المتعلمين من خلال توفير السكن والطعام ولوازم الدراسة.

وتتفاوت الرواتب التي كانت تدفع للمعلمين حسب الأموال الموقوفة على المدرسة، وحسب مكانة المدرسة وشهرتها، وشهرة الأستاذ ومكانته في المجتمع العلمي والعام[2].

وخصصت للمدرّسين أجرة انتقال للإنفاق على الخيول والبغال التي تنقلهم بين مراكز سكناهم ومراكز تدريسهم، كما يجري عليه الأمر في وقتنا الحاضر، من أجل إشعار الأساتذة بالرعاية والعناية وحسن التقدير، وفي سبيل توفير الأجواء المناسبة لتشجيعهم على البحث العلمي وترقيته، وكذلك على تجويد العملية التعليمية وتنمية قدرات طلبتهم وتمكينهم من الإنتاج العلمي[3].

2 – الوقف على طلاب المدارس:

شجع الوقف المتعلّمين على الانخراط في التعليم، والاستفادة من التسهيلات التي وُفرت في المساجد والمدارس والمكتبات من خلال تكفله بتأمين احتياجات المتعلّمين من اللوازم الدراسية المختلفة حيث خصصت بعض الأوقاف لتعليم الطلاب والصرف عليهم مجانا، وإسكانهم في

---

1 – راجع تفصيل ذلك في: المقريزي، الخطط، ج2، ص362–403، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (المتوفى: 927هـ)، الدارس في تاريخ المدارس، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 1410هـ – 1990م، ج1 كاملا، وج2، ص3–106، د. محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية، دار النهضة العربية– القاهرة، ط1، 1980، ص232–255، أبو الحسن لزمد بن أحمد بن جبتَ، رحلة ابن جبتَ، منشورات الأنيس، الجزائر، دط، دت. ص202، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج1وج2، د.أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج1وج2.

2 – ابن جبير، رحلة، ابن جبير، ص202، المقريزي، الخطط، ج2، ص362–403، د.محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص232–255، د. عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين، ص58–71.

3 – كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد بن محمد الصابوني المعروف بابن الفوطي (المتوفى: 723هـ)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ– 2003م، ص59، د. محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص232–255.

الأقسام الداخلية التي كانت إمّا بداخل المدارس أوفي أقسام داخلية منفصلة[1].

والإيقاف على التعليم يستوي في الاستفادة منه الصغير والكبير والغني والفقير فلا يحرم منه أحد بل يستفيد منه كل من طلب العلم والمعرفة، ويرحل الكثير من طلاب العلم إلى أماكن هذه الأوقاف لطلب العلم، كما حدث في القاهرة، حيث أدت التسهيلات إلى أن يفد إلى القاهرة طلاب علم وعلماء من مغرب العالم الإسلامي ومشرقه، كما أنّ القدس كانت محط رحال الكثير من العلماء والطلبة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي نتيجة لوجود المسجد الأقصى والذي كان منارة للعلم وغيره من المساجد، كما أن بعض الأوقاف عُنيت بتعليم الفقراء وذلك بتدريسهم وإسكانهم ومعالجتهم[2].

وعندما زار الرحالة ابن جبير المشرق ورأى تعدد المدارس والأوقاف التي تنفق عليها بوفرة مما شجع طلاب العلم على الاستمرار، ناشد أبناء المغرب أن يرحلوا إلى ديار المشرق لتلقي العلم إذ يقول: "تكثر الأوقاف على طلاب العلم في البلاد الشرقية كلّها وبخاصة دمشق، فمن شاء الفلاح من أبناء مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد فيجد الأمور المعينة على طلب العلم كثيرة وأدلها فراغ البال من أمر المعيشة"[3].

وممّا يؤكد أنّ العملية التعليمية تتطلب نفقات كبيرة يعجز على تحملها كثير من الناس في المجتمع، أنّ نفقات التعليم متعددة منها: الحصول على الكتب، ونفقات السفر والإقامة والأكل والشرب واللبس والعلاج، فالوقف على المدارس وعلى التعليم فيها بكل مستلزماته يظهر مدى ضخامة وأهمية الدور الذي أسهم به الوقف في العملية التعليمية وتوسيع رقعتها، بحيث تتاح لكل طالب راغب في العلم مهما كان مستواه الاقتصادي والاجتماعي، ومهما كان موطنه، فالوقف على المدارس، واستفادة كل أبناء الأمّة الإسلامية منه يثبت وحدة هذه الأمّة، وأنّ الوقف نظام لاحم لأبنائها فيما بينهم ، ومجال مشترك بين الدولة والمجتمع للتعاون في الحفاظ على الأمّة وتطويرها بالعلم والتعليم[4].

---

1 – ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص9, ص16، ص202، د. محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص232–255، د.عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين، ص230–231.

2 – عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الفكر – بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ – 2004م، ص: 452–455، ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص257–258, د.محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص232–255، د. عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين، ص218–221.

3 – ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص258.

4 – د.سليم هانئ منصور، الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي المعاصر، دار مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط1، 1425هـ – 2004م، ص135–138، د. إبراهيم البيومي غانم، الأوقاف والسياسة في مصر، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1419هـ، 1998م، ص79–86.

المطلب الرابع: أشهر المدارس الوقفية ودورها العلمي

وصف العلامة ابن خلدون في مقدمته الوضع الاجتماعي السائد في القاهرة وقت صلاح الدين الأيوبي بقوله: "فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والرُبط ووقفوا عليها الأوقاف المغلّة، فكثرت الأوقاف وعظمت الغلاّت والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلّمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها النّاس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها"[1].

وقال ابن جبير عن المدارس التي شاهدها في البلاد الإسلامية أثناء رحلته:" وبهذه البلدة – أي دمشق– نحو عشرين مدرسة.. وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، والمدارس كذلك، ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين– رحمه الله–"[2].

كما انبهر بمدارس الإسكندرية : "ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطّبّ والتعبّد، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كلّ واحد منهم مسكنا يأوي إليه، ومدرّسا يعلمه الفنّ الذي يريد تعلمه، وإجراء يقوم به في جميع أحواله.. وحمامات يستحمون فيها..، ومارستانات لعلاج من مرض منهم.."[3].

وينقل ابن جبير إعجابه مما شاهد في القاهرة في مدرسة وقفت بإزاء مشهد الإمام الشافعي:" .. وبني بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها..يخيّل لمن يطوف عليها أنّها بلد مستقل بذاته.."[4].

ويصف ابن جبير مدارس بغداد قائلا: ".. والمدارس بها نحو ثلاثين.. وما من مدرسة إلاّ وهي يقصر القصر البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية.. ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصيّر إلى الفقهاء المدرّسين بها، ويجرون على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلّد"[5].

أما ابن بطوطة فيصف مصر والعراق وسوريا بأنّها عامرة بالمعاهد العلمية الموقوفة، ويذكر أنّه استفاد منها، كما وصف أحوال عشرين مدرسة جامعة في دمشق قامت وازدهرت بفضل الأوقاف، أمّا في بغداد فلا يختلف عدد المدارس عما شاهده في دمشق، فيقول عن مدارس مصر فقط:" وأمّا

1 – ابن خلدون، المقدمة، ص: 455.
2 – ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص255–256.
3 – المرجع نفسه، ص9.
4 – المرجع نفسه، ص16.
5 – المرجع نفسه، ص202.

المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها "[1].

يزخر تاريخ المسلمين بأخبار إنشاء المدارس الوقفية ويتوسع المؤرخون في حسن وصفها، والإشادة بمآثرها ودورها في ازدهار العلوم وتخريج العلماء، ولولا الآثار العمرانية الدالة على وجود تلك المدارس وكثرتها لأُتهم المؤرخون والرحّالة بالمبالغة الشديدة، وربما بتزوير الحقائق. لقد كثرت المدارس الوقفية في كلّ بلدان العالم الإسلامي دون استثناء، وفي هذا دلالة أخرى على ارتباط التعليم بالدين، فأينما وجد تجمع للمسلمين إلاّ ووجد معه مركز للتعليم، قد يكون مسجدا وهو الأكيد، كما قد يكون كتّابا أو مدرسة، وفي أغلب الأحيان يكون كل ذلك مجتمعا، فيوجد المسجد وبمحاذاته الكتّاب، كما توجد المدرسة أو المدارس وقريبا منها الخانات والخوانق، وتدل الدراسات التاريخية أنّه لم يخل بلد إسلامي من المدارس الوقفية.

واشتهرت كثير من المدارس في العالم الإسلامي لوفرة أوقافها، وحسن بنائها، وكثرة مرافقها، وشهرة أساتذتها، ودقة نظمها وانتظام الدراسة فيها، وكثرة جراياتها على الأساتذة والطلاب، وضخامة مكتباتها وتوفرها على أهم المؤلفات والكتب، وأشهر تلك المدارس: المدرسة النظامية ببغداد، والمدرسة النورية الكبرى بدمشق، والمدرسة المستنصرية[2] ببغداد، والمدرسة الصالحية بمصر.

أوّلا: المدرسة النظامية

يذكر التاريخ الوزير نظام الملك كلّما ذكرت بدايات إنشاء المدارس، فقد كان له شرف السبق في إنشائها، ففي عهده أنشئت المدارس النظامية، وكان أعظمها وأهمها: نظامية بغداد التي شرع في بنائها عام457هـ/-1064م وافتتحت للدراسة عام 459هـ/1066م[3].

كان لنظام الملك اهتمام بالعلم والعلماء، وهو صاحب سياسة حكيمة في تصريف الأمور، وتقدير عواقبها وآثارها، قال عنه أبو الوفاء علي بن عقيل في كتابه الفنون: " أيامه التي شهدناها، تربى على كل أيام سمعنا بها.. فأبهرت العقول سيرته جودا وكرما وعدلا، بنى المدارس ووقف الوقوف، ونعش من العلم وأهله ما كان خاملا مهملا في أيام من قبله، وكانت سوق العلم في أيامه

1 – محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة (المتوفى: 779هـ)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، ج1، ص23.

2 – راجع: المقريزي، الخطط، ج2، ص362-403، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، وج2، ص3-106، ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص202، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج1وج2، د.أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج1وج2، محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص232-255.

3 – أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، البداية والنهاية، المحقق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى 1408هـ - 1988م، ج12، ص86، المقريزي، الخطط، ج2، ص363.

قائمة، والنعم على أهله دارة"[1].

ظلّ نظام الملك في الوزارة ثلاثين عاما لم يغفل فيها عن الإنعام على العلماء، وإرفاد الأفاضل، وخدمة العلم، وكان ينفق الكثير من ماله على أهل العلم والأدب، وفي أيامه نشأ للناس أولاد نجباء، وتوفر على تهذيب الأبناء والآباء، في عصره نشأت طبقات الكتّاب الجياد، ولم يزل بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء[2].

كانت اهتمامات نظام الملك متعددة، وقد طمح من وراء إنشائه لمدارسه النظامية إلى تحقيق عدّة أهداف سياسية ودينية وعلمية وشخصية. يقول السبكي: ".. وبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال: إنّ له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة،.. وقد أدرت فكري وغلب على ظنّي أنّ نظام الملك أوّل من قدر المعاليم[3] للطلبة.."[4].

وتعد النظامية من أشهر مدارس بغداد، وأجلها شأنا وأقدمها عهدا، وتقع في الجانب الشرقي من بغداد[5].

كانت نظامية بغداد جامعة، والأنموذج الأول الذي قامت عليه نظم الجامعات في العصر الحديث، فقد احتوت على مساكن لإقامة الطلاب مع توفر كلّ المرافق الضرورية لحياة كريمة، كما خصصت المنح لهم، وكانت تمثل عهدا جديدا في نشوء المدارس الإسلامية, وبفضلها تغيّر نظام التعليم جذريا في كل البلاد الإسلامية ، وكانت النموذج المحتذى الذي أقيمت على صورته وتشبهت به كلّ الكليّات التي لا تحصى عددا وغزت المشرق والمغرب على السواء[6].

كما اعتبرت نظامية بغداد النواة الأولى للدراسات العليا المنظمة والبحث العلمي في الجانب الشرقي من العالم الإسلامي، والذي امتد خمسة قرون، وأثّرت في مناهج الدراسة ومعمارية

1 – د. ياسين بن ناصر الخطيب، أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة، جامعة أم القرى، تاريخ النشر:1422ه، ص303.

2 – أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (المتوفى: 520هـ)، سراج الملوك، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1414ه – 1994، ص514.

3 – والمعاليم هو الشيء المعلوم الذي يأخذه الطالب، أي المنحة المالية بلغة عصرنا.

4 – تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، ج4، هجر للطباعة والنشر، 1413هـ، ص313-314، السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص255، المقريزي، الخطط، ج2، ص363.

5 – ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص202، المقريزي، الخطط، ج2، ص363، د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص58.

6 – د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، المرجع نفسه، ص58.

وأساليب البناء على المدارس التي شيّدت بعد ذلك، والتي أثار خريجوها وأساتذتها ضجة علمية ودينية اجتاز صداها إلى أقصى بلاد المغرب، لدرجة جعلت كل من السبكى والمقريزي وابن خلكان يعتبرونها أوّل المدارس التي أنشئت على وجه الأرض في دولة الإسلام[1].

وفر نظام الملك لطلاب النظامية المأكل والمشرب والملبس، والمسكن والأدوات الكتابية والمدرسية، وكان لها مدير وأساتذة ومعيدون وخزنة للكتب يصرف عليهم من هذه الأوقاف، كما كان لها بواب وخدم، يأخذون أجورا على أعمالهم من أوقافها[2].

اشترى نظام الملك ضياعا وحمامات وخانات ومخازن ومحلات، وجعلها وقفا عليها، بل بنى أسواقا حولها تكون محبوسة عليها[3]، وكان ينفق كل عام ألف وخمسمائة دينار على الأساتذة والطلاب، حيث كان يعيش فيها ستة آلاف طالب يقومون بتحصيل العلم[4].

وقد أشار ابن الجوزي إلى هذا الوقف وصفته المذهبية والفئات المستحقة له من المنتسبين إلى المدرسة بقوله:" هذه المدرسة والموقف عليها، وفي كتاب شرطها أنّها وقفت على أصحاب الشافعي أصلا مرفوعا، وكذلك شرط المدرّس الذي يكون بها والواعظ الذي يعظ بها ومتولي الكتب، وشرط أن يكون فيها مقرئ يقرأ القرآن ونحويّ يدرس العربية، وفرض لكلّ قسط من الوقف، وكانت حقوق الطلاب من هذه الأوقاف يوميا من الخبز أربعة أرطال"[5].

وقد وصف ابن جبير أوقاف المدارس ومنها النظامية حينما زار بغداد سنة 580هـ/ 1184م فقال" لهذه المدارس أوقاف عظيمة, وعقارات محبسة تتصيّر إلى الفقهاء المدرّسين بها ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم"[6].

اشتملت المدرسة النظامية من بين أوقافها على دار كتب حافلة بأصناف المؤلفات بلغت مجلداتها في أيام ابن الجوزي (ت597هـ/1200م) عدة آلاف، إذ قال عنها" ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقفة في المدرسة النظامية فإذا به يحتوي على ستة آلاف مجلد"[7].

---

1 – المقريزي، الخطط، ج2، ص363، السيوطي، حسن المحاضرة, ج2، ص255، د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص58.

2 – د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص59.

3 – الطرطوشي، سراج الملوك، ص516.

4 – د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص59.

5 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

6 – ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص202.

7 – أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، صيد الخاطر، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،

فكثرة أملاك المدرسة النظامية في أوقافها كان السبب في سعة الجهاز الإداري لهذه الأوقاف، بالإضافة إلى النظار والمشرفين والكتّاب[1]، وكان أبو نصر محمد بن نظام الملك (ت561/1165م) من أوائل الذين نظروا في هذه الأوقاف[2].

ثانيا: المدرسة المستنصرية

خلّد الخليفة العباسي المستنصر بالله (623 -640هـ/ 1226- 1242م) ذكره بإنشاء مدرسته المعروفة بالمستنصرية، والتي تعدّ من أقدم الجامعات الإسلامية، ومن أعظم الأعمال الحضارية التي قامت بها الخلافة العباسية في خاتمة أيامها، فأصبحت من مفاخر بغداد حتى قيل فيها: "ومن مفاخرها المدرسة التي أنشأها المستنصر بالله، لم يبن مثلها قبلها في حسن عمارتها ورفعة بنائها، وطيب موضعها على شاطئ دجلة وأحد جوانبها في الماء، لم يعرف موضع أكثر منها أوقافا ولا أرفه منها سكانا.."[3].

فقد شرع الخليفة المستنصر بالله العباسي في بناء المدرسة ببغداد على شط دجلة سنة 625 هـ/1227م، وجعلت وقفا على المذاهب الأربعة، وقام على بنائها وتشييدها أستاذ دار الخلافة محمد بن العلقمي، وبلغ ما أنفقه عليها 700 ألف دينار، وافتتحت للدراسة في سنة 631 هـ/1233م، وكان يوما مشهودا أقيم فيه احتفال كبير بهذه المناسبة، خلع فيه الخليفة العباسي على محمد بن العلقمي وأخيه أحمد، وهما اللذان أشرفا على بنائها، أموالا كثيرة وذُبح ألفا رأس من الغنم، وعملت الحلوى صفوفا، وأقيم سماط عظيم في صحن المدرسة كان عليه صفوف شتى،وألوان مختلفة من الأطعمة الفاخرة، أكل منه الحاضرون وحُمل منه إلى سائر دروب بغداد[4].

فالمستنصرية أشهر المدارس الإسلامية في بغداد بعد النظامية، لأنّها لم تكن مدرسة كغيرها من المدارس باقتصارها على صنف واحد من العلوم والمعارف، بل كانت كليّة كبرى تضم عددا من المدارس المختلفة المعنية بدراسة الفقه على المذاهب الأربعة، وعلوم القرآن وعلوم الحديث والتركات وعلوم الطب وغيرها من المعارف، فكانت بحق جامعة إسلامية متكاملة[5].

1412ه-1992م، ص449، د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص61.

1 - د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، المرجع نفسه، ص61.

2 - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

3 - القزويني، المخطط، ص316.

4 - ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص 60، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 118-119.

5 - المرجع نفسه، ص 58-59، و: ج 13، ص 118-119.

فقد خصص الخليفة المستنصر لدراسة الفقه الإسلامي بناية خاصة تدرس فيها المذاهب الفقهية الأربعة مجتمعة لأول مرة في تاريخ المدارس الإسلامية، وجعل للطبّ بناية خاصة، ثم أضاف إلى مدرستي الفقه والطب دارين أخريين: دارا للقرآن ودار اللحديث، وبذلك جمع الخليفة المذاهب الفقهية الأربعة وعلوم القرآن وعلوم الحديث وعلم الطبّ والعربية والرياضيات والفرائض، وجعلها في مكان واحد تتألف من أبنية متعددة أطلق عليها اسم المستنصرية، وكانت المدارس تبنى من قبل مستقلة لكل فرع من تلك الفروع، فيدرس الطبّ في مدارس مستقلة عن مدارس الحديث التي هي الأخرى مستقلة عن دور القرآن[1].

وقد سنّ الخليفة المستنصر بالله سُنّة حسنة بدراسة الفقه بمذاهبه الأربعة في مدرسة واحدة، ثمّ توالى بعد ذلك إنشاء المدارس التي انتهجت هذا النهج في تدريس الفقه بمذاهبه الأربعة.

اختير للتدريس بالمستنصرية كبار الشيوخ وأئمة العلم في العراق والشام ومصر وغيرها[2] ، ورتب مع هؤلاء المدرّسين معيدون نابغون، أمّا الطلاب فكانوا عادة من الطلاب النابهين، وكان لكلّ مذهب من المذاهب الفقهية مدرس مع أربعة معيدين[3].

وقد ظل التدريس قائما بالمدرسة المستنصرية منذ أن افتتحت في سنة (631هـ/1233م) حتى سنة (940هـ/1533م)، إذ توقفت الدراسة فيها ليستخدم البناء في أغراض أخرى غير التدريس[4].

كانت المدرسة مجهزة بما يعين الطلاب على الدرس والتحصيل، ويساعد الأساتذة على الشرح والتوضيح، فألحق بالمدرسة مكتبة عامرة أهداها الخليفة المستنصر إليها، وكانت تضم ثمانين ألف كتاب بالإضافة إلى ما حُمل إليها بعد ذلك، وكان يقوم عليها خزنة من العلماء الأفذاذ والمؤرخين المشهورين، وتضم عددا من الناسخين والمناولين للكتب الذين يقومون على خدمة الطلاب[5].

---

1 – راجع تفصيل ذلك:ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص 61، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 118–119، د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص68 ومابعدها، د. كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص74–75.

2 – فلم يكد يمضي عشر سنوات على افتتاح المستنصرية حتى أقدم الملك الصالح نجم الدين أيوب بإنشاء المدرسة الصالحية بالقاهرة سنة (641هـ/ 1243م) لتدريس المذاهب الأربعة، ثم قامت زوجة الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين المعروفة باسم "باب بشير" ببناء المدرسة البشيرية في سنة (649هـ/ 1251م) بالجانب الغربي من بغداد وجعلتها وقفا على المذاهب الأربعة على قاعدة المدرسة المستنصرية، وافتتحت للدراسة في سنة 653هـ، راجع: المقريزي، الخطط، المصدر السابق، ج2، ص 374، د. عبد الغنيّ عبد العاطي، التعليم في مصر، ص64–65.

3 – ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص 59–61.

4 – د. كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص74–75.

5 – ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص 58–59.

وضمت المدرسة مستشفى يعالج فيه أهل المدرسة وغيرهم،ويدرّس فيه الطبّ، حيث تقترن الدراسة النظرية بالتطبيق ومعالجة الحالات المرضية وإجراء الفحوص والتجارب[1]، وهذا يفسر عدم ظهور أو تفشي وباء أو مرض بين طلابها وموظفيها وساكنيها بالرغم من كثرتهم ، فذلك يعود إلى توفر وسائل الوقاية كالحمّام والمارستان فضلا عن الطعام الجيّد الموجود في مطبخ المدرسة[2].

وأوقف الخليفة المستنصر على مدرسته وقفا كبيرا، ليتفرغ القائمون عليها والملتحقون بها للدراسة والتكوين العلمي، فقد خصص لنظّارها وشيوخها ومدرسيها ومعيديها وأطبائها وطلابها وكل العاملين بها ما يكفيهم من الطعام والشراب والنفقات، ورتّبت لهم البيوت والمساكن، وكانت الأطعمة توزع يوميا مطبوخة على طلابها المثبتين في المدرسة، بالإضافة إلى ما كان يجهز لهم من الحصر والسراج والزيت والورق والحبر والأقلام، وكان يقدم لهم في الصيف الماء البارد وفي الشتاء الماء الساخن، وكان رجال الإدارة والتدريس يوزع عليهم كميات كبيرة من الخبز واللحم والخضراوات، بالإضافة إلى ما كانوا ينالونه من رواتب وهبات وعطايا[3].

وقد وصف القزويني مقدار أوقافها فقال "لم يعرف موضع أكثر منها أوقافا ولا أرفه منها سكانا"[4].

وأشار ابن العماد إلى ذلك بقوله عن المستنصر بالله "بنى مدرسة المستنصرية ووقفها على المذاهب الأربعة، وفيها المارستان والحمام وليس في الدنيا مثلها"[5].

قال الذهبي: "ثم رأيت نسخة كتاب وقفها في خمسة كراريس، والوقف عليها عدة رباع، وحوانيت ببغداد، وعدة قرى كبار وصغار ما قيمته تسعمائة ألف دينار فيما يخال إلي، وحدثني الثقة أنّ ارتفاع وقفها بلغ في بعض السنين تسعا وسبعين ألف مثقال ذهبا"[6].

وقال الذهبي في موضع آخر: "..تكامل بناء المستنصرية .. وبها شيخ نحو، وشيخ طب، وخزانة كتبها عديمة المثل وأوقافها عظيمة، غلّت في بعض السنين سبعين ألف دينار، قيل أنّ قيمة ما وقف

1 – ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص 61.
2 – د. كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية،، ص95-98.
3 – ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص 61، د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص69-71.
4 – القزويني، الخطط، ص316.
5 – ابن العماد، الشذرات، ج7، ص361.
6 -- الذهبي، تاريخ الإسلام، د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1987م، ج7، ص46، د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص72.

عليها يساوي ألف ألف دينار.."[1].

أمّا خزانة الكتب فإنّها من أهمّ ملحقات المدرسة العلمية، لأنّها حافلة بعدد كبير من أنواع المصنفات وأمهات الأسفار، وليس هذا بغريب فيما عرف عن اهتمام الخليفة المستنصر بتأسيس خزانة كتبه الخاصة المتنوعة بالمعارف والعلوم، وكانت خزانة كتب المستنصرية من السعة والتنوع والكثرة حتى تبدو في تفوقها واضحة على كل خزانة عامة سابقة عليها، حتى بلغت ثمانين ألف مجلد[2].

وكانت أحداث الغزو المغولي لبغداد سنة 656هـ/ 1208م، ثمّ احتلال الجيوش التيمورلنكية لبغداد سنة 795هـ/ 1393م، من أبرز عوامل ضياع واندثار الكتب والمؤلفات من هذه الخزانة[3].

وكان القائمون على وقف المستنصرية يتقاضون في كل شهر رواتب نقدية من الدنانير الذهبية تختلف باختلاف منازلهم وأقدارهم[4].

ثالثا: المدرسة الصالحية بمصر

وهي أول مدرسة درست المذاهب الأربعة بمصر، إذ أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة 641هـ، وأوقفت عليها أوقاف ضخمة[5].

كان بناء هذه المدرسة بمثابة إتمام وإكمال لتطور نظام المدرسة واكتمال شخصيتها في مصر، إذ بدأت هذه الحركة بإنشاء مدارس مفردة تقوم أساسا بتدريس مذهب واحد من المذاهب السنيّة الأربعة،ثم تطورت إلى أن جمعت بين المذهبين ثمّ تبع ذلك إنشاء الملك الصالح المدرسة الصالحية بين القصرين، وكانت وقفا على المذاهب الأربعة وكان موضعها جزءا من القصر الكبير الشرقي فابتدأ بهدم موضعها في ذي الحجة سنة 639هـ/1241م[6].

وبعد إتمام المدرسة وقفها الملك الصالح على طوائف الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة. وبذلك تكون المدرسة الصالحية أول مدرسة بمصر"تشمل دروسا أربعة في مكان

1 – الذهبي، سير أعلام النبلاء، المرجع نفسه، ج6، ص46، د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص72.
2 – ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص 58–59، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 118–119، وص134، د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص74، د. كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص94.
3 – د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص74.
4 – ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص62، د.محمد عبد العظيم أبو النصر، الأوقاف في بغداد، ص69–73.
5 – المقريزي، الخطط، ج2، ص374.
6 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.، د. كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص114.

واحد"[1].

لم يكن الملك الصالح مبدعا لهذا النوع من المدارس المشتركة لتدريس المذاهب السنيّة الأربعة، إذ سبق ذلك قيام المدرسة المستنصرية ببغداد لتدريس المذاهب الأربعة، ولكن الاختلاف بينهما أنّ المدرسة المستنصرية لم يكن بها سوى إيوانين اثنين أمّا المدرسة الصالحية، فكانت تشتمل على أربعة أواوين كل إيوان منها خاص لطلبة مذهب من المذاهب السنيّة الأربعة[2].

وأوّل من تولى إلقاء الدرس بها من مدرسي الحنابلة قاضي القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن العماد إبراهيم بن عبد الواحد علي بن سرور المقدسي الحنبلي الصالحي[3].

وهذه أول مرّة يكون للحنابلة فيها مدرسة إذ لم يسبق أن أقيمت لهم مدرسة قبل ذلك سواء كانت خاصة بهم أم مشتركة مع غيرهم من المذاهب السنيّة الأخرى، وربما كان السبب في ذلك قلّة عدد الحنابلة بمصر[4].

ويذكر النويري أنّ الملك الصالح بعد فراغه من عمارة هذه المدرسة ندم وتمنى لو أنّه بنى مكانها جامعا يرتب فيه الدروس الأربعة التي رتبها في هذه المدرسة[5].

رابعا : المدرسة النورية الكبرى بدمشق

أسس هذه المدرسة نور الدين بن زنكي سنة 567ه/1172م وخصصها للمذهب الحنفي[6].

ذكر ابن شدّاد أنّ هذه المدرسة تقع بخط الخواصين، وأنّ الذي بناها هو نور الدين محمود بن زنكي في سنة563ه[7].

وقد شاهد الرحالة ابن جبير هذه المدرسة في زيارته لدمشق سنة 580هـ ووصفها بأنّها " من أحسن مدارس الدنيا منظرا، وأنّها قصر من القصور الأنيقة ، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط

1 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.، د. عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر، ص 65، د. كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص114.

2 – د. عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر، ص 65، د. كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص82–83.

3 – المقريزي، الخطط، ج2، ص374، د. عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر، ص 65.

4 – د. عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر، ص 65.

5 – شهاب الدين أحمد بن عبد الوهابالنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت، ج29، ص183، د. عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر، ص 65.

6 – ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص256، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج1، ص69–70، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص466، د.أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج2، ص 103، د. كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية، ص103.

7 – النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص466.

نهر عظيم, ثمّ يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر, فكلّ من يبصره يجدّد الدعاء لنور الدين- رحمه الله-"[1].

وقد نالت هذه المدرسة مكانة علمية كبيرة في ذلك العهد، خاصة في عصر السلطان نور الدين محمود والسنوات التي أعقبتها، وحينما تذكر حركة التعليم في بلاد الشام في تلك العصور يشار إلى هذه المدرسة في مقدمة دور التعليم، وتتضح أهميتها في الأثر العلمي الذي تركه شيوخها ومدرّسوها ومعيدوها، وفي الأعداد الوافرة من الطلاب الذين تخرجوا فيها، إضافة إلى ما قامت به تلك المدرسة من نشاط سياسي واجتماعي كبير في ذلك العهد[2].

أسهب النعيمي في ذكر العلماء والقضاة ومن آلت إليهم رئاسة الحنفية، الذين تولوا التدريس أو الإعادة في المدرسة النورية الكبرى، وعلوّ شأن هؤلاء الأساتذة بين العلماء والحكام والناس يدّل على المكانة العالية التي احتلتها المدرسة النورية الكبرى،فلا يدرّس فيها إلا أكابر العلماء والقضاة[3].

ووقّف نور الدين على المدرسة النوريّة الكبرى أوقافا كثيرة يكفي ريعها الوفير للإنفاق على الطلاب والمدرسين، ونستخلص أنواع تلك الأوقاف ونستجلي حقيقتها من قراءة الكتابة المسجلة على الحجر الذي يكوّن العتبة العليا لباب المدرسة، فيتبين لنا حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين على هذه المدرسة للإنفاق من ريعها على الطلاب والمدرسين والعاملين بالمدرسة إنفاقا سخيا متواصلا، ونص هذه الكتابة كالآتي[4]: بسم الله الرحمان الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي آقسنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه، ووقف عليها وعلى الفقهاء والمتفقهة بها جميع الحمّام المستجد بسوق القمح، والحمّامين المستجدين بالوراقة ظاهر باب السلامة، والدار المجاورة والربع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى والعشرين حانوتا خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، على ما نص وشرط، فكتب الوقف رغبة في الآخرة وتقدمه بين يديه يوم الحساب: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة/181.

1 – ابن جبير، رحلة ابن جبير، المرجع السابق، ص256.
2 – د. راغب السرجاني، العلم وبناء الأمم، ص412.
3 – النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص475-498.
4 – المرجع السابق، ص412-413.

وجاء في البداية والنهاية[1] :"وحكى الشيخ أبو شامة أنّ نور الدين وقف بستان الميدان سوى الغيضة التي تليه نصفه على تطييب جامع دمشق، والنصف الآخر يقسم عشرة أجزاء،جزءان على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية، والثمانية أجزاء الأخرى على تطييب المساجد التسعة"[2].

الخاتمة

وفي نهاية هذا البحث المتعلق بالوقف على المدارس ودوره في ترقية البحث العلمي، يمكن أن نخرج بالنتائج التالية:

1 – لقد أسهم الوقف في ظهور العديد من المدارس العلمية، كالنظامية والمستنصرية وغيرهما، مع الاهتمام بما يساعد أساتذتها وطلبتها على العلم، كتقدير الأجور والمنح، وتوفير المساكن وغيرها.

2 – لقد أسهم الوقف في توفير المناخ المناسب لكل من الأساتذة والطلبة بتوفير مستحقاتهم ما جعل الطلبة يقبلون على العلم من شتى البلاد، وجعل الباحثين يفرغون أوقاتهم ويسخرون جهودهم في البحث العلمي.

3 – وفرّ الوقف التعليم لكل طبقات المجتمع، الأغنياء والفقراء، والكبار والصغار؛ بل حتى الكهول، حيث أصبح التعليم بالمجان، وبإمكان كل طالب أن يلتحق بهذه المدارس وينخرط فيها ويرتقي في السلم الاجتماعي للارتقاء بالمجتمع في الجانب العلمي والثقافي، وهذا شجع على العلم والبحث العلمي مما أدى لترقيتهما.

4 – أسهم الوقف في تدعيم الأساسيات التي يعتمد عليها العلم؛ والتي منها إيقاف المكتبات والكتب، ممّا أتاح لطلبة العلم البحث والوصول للمعلومة، ومكن الباحثين من التأليف والإبداع في شتى العلوم المختلفة، ووفر عليهم الجهد والوقت والمال في آن واحد.

---

1 – ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص252.

2 – أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (المتوفى: 665 هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، المحقق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1418 هـ/ 1997 م، ج1، ص 72.